بيان إعجاز القرآن

لأبى سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابى

(٣١٩ هـ - ٣٨٨ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليمًا

القول في بيان إعجاز القرآن

قال أبو سليمان [1] : قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديمًا وحديثًا ، وذهبوا فيه كل مذهب من القول ، وما وجدناهم بعدُ صدروا عن رِى ، وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن ، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته . فأما أن يكون قد يقبت في النفوس نقبة [2] بكونه معجزًا للخلق ممتنعًا عليهم الإتيانُ [3] بمثله على حال فلا موضع لها ، والأمر في ذلك أبين من أن نحتاج إلى أن ندل عليه بأكثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر ، من لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذى نحن فيه . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه . وقد بقى صلى الله عليه وسلم يطالبهم به مدة عشرين سنة ، مظهرًا لهم النكير، زاريًا على أديانهم ، مسفهًا آراءهم وأحلامهم ، حتى نابذوه وناصبوه الحرب فهلكت فيه النفوس ، وأُريقت المهج ، وقُطعت الأرحام ، وذهبت الأموال .

ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة .

---

(١) في « ب » : قال أبو سليمان حمد بن إبراهيم الخطابي رضى الله عنه .

(٢) في « ب » : نقت . . نقية — ويذكر أنها في الأصل لقيت لقية ، أثبتناه أكثر القراءات تمشياً مع النص ، وربما كانت الكلمة في الأصل تصحيفاً لألقيت إلقاء .

(٣) في « ب » : ممتنعاً بالإتيان بمثله .

ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة ، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل ، وهذا ما لا يفعله عاقل ولا يختاره ذولب . وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الأَحلام ، ووفارة العقول والأَلباب . وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون . وقد وصفهم الله تعالى فى كتابه بالجدل واللدد فقال سبحانه :﴿...ما ضربُوه لك إلاَّ جدلاً بل هُمْ قومٌ خَصِمُون﴾(١) وقال سبحانه : ﴿ وتُنْذِرَ بِه قوما لُدًّا ﴾ (٢) . فكيف كان يجوز ــ على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة ــ أَن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه ، وأَن يضربوا عنه صفحًا ، ولا يحوزوا الفلح والظفر فيه لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه . ومعلوم أَن رجلا عاقلا لو عطش عطشًا شديدا خاف منه الهلاك على نفسه وبحضرته ماء معرض للشرب فلم يشربه حتى هلك عطشًا [لحكمنا (٣)] أَنه عاجز عن شربه غير قادر عليه . وهذا بيِّن واضح لا يُشكل على عاقل .

قلت : وهذا ــ من وجوه ما قيل فيه ــ أَبينها دلالة وأَيسرها مؤونة . وهو مقنع لمن تنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإِعجاز فيه .

وذهب قوم إلى أَن العلة فى إعجازه الصرفة (٤) ، أَى صرف الهمم عن المعارضة ، وإن كانت مقدورًا عليها ، وغير معجزة عنها ؛ إلا أَن العائق من حيث كان أَمرًا خارجًا عن مجارى العادات صار كسائر المعجزات . فقالوا : ولو كان الله عز وجل بعث نبيًّا فى زمان النبوات ، وجعل معجزته فى تحريك

---

(١) سنجرى فى خلال هذا الكتاب على ذكر اسم السورة متبوعاً برقمها ثم رقم الآية (الزخرف ٥٨/٤٣) . وتمام الآية : (وقالوا ءَآلهتنا خيرٌ أم هو ما ضربوه لك إلاّ جدلاً ، بل هم قوم خصمون) .

(٢) [مريم ١٩ / ٩٧] .

(٣) أضفنا هنا كلمة (لحكمنا) ليتم الكلام .

(٤) فى « ب » : وذهب قوم إلى الإعجاز فيه الصرفة .

يده أو مدرجله فى وقت قعوده بين ظهرانى قومه ، ثم قيل له : ما آيتك ؟ فقال آيتى أن أحرك يدى أو أمد رجلى ، ولا يمكن أحدًا منكم أن يفعل مثل فعلى ، والقوم أصحاء الأبدان لا آفة بشيء من جوارحهم ، فحرك يده أو مد رجله ، فراموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدروا عليه ، كان ذلك آية دالة على صدقه . وليس ينظر فى المعجزة إلى عظم حجم ما يأتى به النبى ولا إلى فخامة منظره ، وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمرًا خارجًا عن مجارى العادات ناقضاً لها ، فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها ، وهذا أيضًا وجه قريب ، إلاأن دلالة الآية تشهد بخلافه وهى قوله سبحانه : ﴿ قُل لَئِن اجتَمعتِ الإِنْسُ والجنُّ عَلَى أَنْ يأْتُوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يأْتُون بمِثْلِهِ ولوْ كانَ بعضُهُمْ لبعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1] ، فأشار فى ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد ، وسبيله التأهب والاحتشاد . والمعنى فى الصرفة التى وصفوها لا يلائم هذه الصفة ، فدل على أن المراد غيرها ، والله أعلم .

وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن فى مستقبل الزمان نحو قوله سبحانه : ﴿ الم . غُلِبَتِ الرومُ فى أَدنَى الأَرْضِ ، وهُمْ من بعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُون ، فى بِضْعِ سِنين ﴾[2] ، وكقوله سبحانه : ﴿ قُل للمخَلَّفِينَ من الأَعْرابِ ستُدعَوْنَ إلى قوم أُولى بأْس شديدٍ ﴾[3] ، ونحوهما من الأخبار التى صدقت أقوالها مواقع أكوانها . قلت : ولا يشك فى أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه ، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود فى كل سورة من سور القرآن ، وقد جعل سبحانه فى صفة كل

---

(١) [الإسراء ١٧/٨٨] .
(٢) [الروم ٣٠/ ١ — ٣] . وفى « ب » إلى قوله تعالى « الأرض » الآية .
(٣) [الفتح ٤٨ / ١٦] .

سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتى بمثلها ، فقال : ﴿ فأْتوا بسورة من مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُم صَادِقِين ﴾ (١) من غير تعيين(٢) ، فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه .

وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة (٣) ، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر ، وفى كيفيتها يعرض لهم الإشكالُ ، ويصعب عليهم منه الانفصال ، ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا فى تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد وضرب من غلبة الظن دون التحقيق له وإحاطة العلم به ، ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التى اختص بها القرآن ، الفائقة فى وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذى يتميز به عن وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذى يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة ، قالوا إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام ، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربًا من المعرفة لا يمكن تحديده ، وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذى يقع منه التفاضل فتقع فى نفوس العلماءِ به عند سماعه معرفة ذلك ، ويتميز فى أفهامهم قبيل الفاضل من المفضول منه .

قالوا : وقد يخفى سببه عند البحث ويظهر أثره فى النفس حتى لا يلتبس على ذوى العلم والمعرفة به . قالوا : وقد توجد لبعض الكلام عذوبة فى السمع وهشاشة فى النفس لا توجد مثلها لغيره منه ، والكلامان معًا فصيحان ، ثم لا يوقف لشىء من ذلك على علة .

قلت : وهذا لا يقنع فى مثل هذا العلم ، ولا يشفى من داءِ الجهل به ،

---

(١) [البقرة - ٢/٢٣] .
(٢) فى « ب » : عبارة « من غير تعيين » ناقصة .
(٣) لخص السيوطى هذا الرأى فى كتاب الإتقان ط حجازى سنة ١٣٦٠هـ ٢/٢٠٤ .

وإنما هو إشكال أُحيل به على إبهام ، وقد تمثل بعضهم فى هذا بأَبيات جرير التي نحلها ذا الرُّمة[١] : ذكرت الرواة أن جريرًا مرّ بذى الرمة وقد عمل قصيدته التى أَولها :

نَبتْ عَيْنَاكَ عن طَلَلٍ بحُزْوَى　　عَفَتْهُ الريحُ وامتنح القِطَارَا

فقال : أَلا أُنجدك بأَبيات تزيد فيها ! فقال : نعم . فقال :

يعدُّ النَّاسِبُونَ بنى تَميمٍ　　بيوتَ المجْدِ أَربَعَةً كِبَارَا

يعدُّون الرَّباب وآل تَيم　　وسعداً ثم حنْظَلَةَ الخِيارا

ويذهب بينها الْمَرْئِى لغوًا　　كما أَلغيتَ فى الدِّية الحُوارا

فوضعها ذو الرمة فى قصيدته ثم مرَّ به الفرزدق فسأَله عما أَحدث من الشعر ، فأَنشده القصيدة ، فلما بلغ هذه الأَبيات قال : ليس هذا من بحرك ، مُضيفها[٢] أَشدُّ لَحيين منك! قال : فاستدركها بطبعه ، وفطن لها بلطف ذهنه .

قلت : فأَما من لم يرض من المعرفة بظاهر السِّمة دون البحث عن باطن العلة ، ولم يقنع فى الأَمر بأَوائل البرهان حتى يستشهد لها دلائل الامتحان ، فإنه يقول إن الذى يوجد لهذا الكلام من العذوبة فى حس السامع ، والهشاشة فى نفسه ، وما يتحلى به من الرونق والبهجة التى يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع فى القلوب ، والتأْثير فى النفوس ، فتصطلح من أَجله الأَلْسُن على أَنه كلام لا يشبهه كلام ، وتَحْصَرُ الأَقوال عن معارضته ، وتنقطع به الأَطماع عنها ، أَمر لا بد له من سبب ، بوجوده يجب له هذا

---

(١) راجع القصة فى الأغانى ط الساسى ١٦ / ١١٣ .
(٢) فى « ب » : مصنغها .

الحكم ، وبحصوله يستحق هذا الوصف . وقد استقرينا أوصافه الخارجة عنه ، وأسبابه النابتة منه ، فلم نجد شيئًا منها يثبت على النظر ، أو يستقيم فى القياس ، ويطَّرد على المعايير [١] ، فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوبًا من ذاته ، ومستقصًى من جهة نفسه : فدل النظر وشاهد العِبر على أن السبب له ، والعلة فيه [٢] أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها فى نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها فى البلاغة متباينة [٣] غير متساوية ؛ فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ؛ ومنها الجائز الطَّلْقُ الرَّسْلُ . وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم ، الذى لا يوجد فى القرآن شىء منه ألبتة .

فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثانى أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث أدناه وأقربه ؛ فحازت بلاغاتُ القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصةً ، وأخذت من كل نوع من أنواع شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة ، وهما على الانفراد فى نعوتهما كالمتضادين لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة فى الكلام تعالجان نوعًا من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين فى نظمه مع نبوّ كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن ، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره [٤] ليكون آية بينة لنبيه ، ودلالة له على صحة مادعا إليه من أمر دينه .

وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور : منها أن علمهم لا يحيط

---

(١) فى « ب » : ويطرد على معانى العبر .
(٢) لخص السيوطى هذا الرأى فى الإتقان ٢ / ٢٠٤ . ولخصه صاحب مفتاح السعادة ٢ /٣٥٩ .
(٣) فى « ب » لفظة « متباينة » غير موجودة .
(٤) فى « ب » : لسترها بلطيف قدرته عن الزلة .

بجميع أسماءِ اللغة العربية [وبألفاظها (١)] التى هى ظروف المعانى والحوامل لها ، ولا تدرك أفهامهم جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاءِ جميع وجوه النظوم التى بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن (٢) من وجوهها إلى أن يأْتوا بكلام مثله ، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياءِ الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم . وإذا تأَملت القرآن وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظمًا أحسن تأْليفًا وأشد تلاؤمًا وتشاكلاً من نظمه . وأما المعانى فلا خفاءَ على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها ، والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها .

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق فى أنواع الكلام ، فأَما أن توجد مجموعة فى نوع واحد منه فلم توجد إلا فى كلام العليم القدير ، الذى أحاط بكل شىء علمًا ، وأحصى كل شىء عددًا .

فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزًا لأَنه جاءَ بأَفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأْليف مضمنًا أصح المعانى ، من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له فى صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته ؛ من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ (٣) وتقويم وأمر بمعروف ونهى عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساوئها ، واضعًا كل شىءٍ منها موضعه الذى لا يرى شىء أولى منه ، ولا يرى (٤) فى صورة العقل أمر أليق (٥)

---

(١) فى الأصل أوضاعها ويبدو أنها تصحيف لكلمة ألفاظها التى أثبتناها والتى تتفق مع السياق .
(٢) فى « ب » الأخس .
(٣) فى الأصل واو قبل كلمة (وعظ) ويظهر أن هذا حمل ناشر « ا » أن يقرأ العبارة : ومن ووعظ . ونحن نرجح القراءة المثبتة لتمشيها مع السياق .
(٤) فى « ب » : ولا يتوهم . (٥) فى « ب » : أليق به منه .

منه ، مودعًا أخبار القرون الماضية وما نزل من مَثُلات الله بمن عصى وعاند منهم ، منبئًا عن الكوائن المستقبلة فى الأَعصار الباقية من الزمان ، جامعًا فى ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ، ليكون ذلك أَوكد للزوم ما دعا إليه ، وإنباء عن وجوب ما أَمر به ، ونهى عنه .

ومعلوم أَن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أَمر تعجز عنه قُوى البشر ، ولا تبلغه قدَرهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله أَو مناقضته فى شكله . ثم صار المعاندون له ممن كفر به وأَنكره يقولون مرة إنه شعر لما رأَوه كلامًا منظومًا ، ومرة سحر إذ رأَوه معجوزًا عنه ، غير مقدور عليه ، وقد كانوا يجدون له وقعًا فى القلوب وقرعًا فى النفوس يُريبهم ويحيرهم ، فلم يتمالكوا أَن يعترفوا به نوعًا من الاعتراف . ولذلك قال قائلهم : إن له حلاوة وإن عليه طلاوة . وكانوا مرة لجهلهم وحيرتهم يقولون : ﴿ أساطير الأَولين اكْتَتَبها فَهى تُمْلَى عَلَيْه بُكرةً وَأَصِيلاً ﴾[1] مع علمهم أَن صاحبه أُمىٌّ وليس بحضرته من يملى أَو يكتب ، فى نحو ذلك من الأمور التى جماعها الجهل والعجز ، وقد حكى الله جل وعز عن بعض مردتهم وشياطينهم – ويقال هو الوليد بن المغيرة المخزومى – أَنه لما طال فكره فى أَمر القرآن ، وكثر ضجره منه ، وضرب له الأَخماس من رأَيه فى الأَسداس ، لم يقدر على أَكثر من قوله : ﴿ إن هذَا إلَّا قولُ البَشَر ﴾[2] عنادًا للحق وجهلاً به ، وذهابًا عن الحجة وانقطاعًا دونها ، وقد وصف[3] ذلك من حاله وشدة حيرته فقال سبحانه : ﴿ إنه فكَّرَ وقدَّر ، فقُتل كيف قدَّرَ ، ثم قُتِل كيف قَدَّر . ثم نَظَر ثم عَبَس وبَسَر . ثم أَدبر واسْتكبَر . فقال إن هذا إلا سحرٌ يُؤْثَر . إنْ هذا إلَّا قولُ البشَر ﴾[4] .

---

(١) [الفرقان ٢٥/٥] .
(٢) [المدثر ٧٤/٢٢] .
(٣) فى « ب » زيادة [الله تعالى] .
(٤) [المدثر ٧٤/١٤ – ٢٢] .

وكيفما كانت الحال ودارت القصة ، فقد حصل باعترافهم قولاً ، وانقطاعهم عن معارضته فعلاً أنه معجز ، وفى ذلك قيام الحجة وثبوت المعجزة ، والحمد لله[١] .

ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التى تجمع[٢] لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذى إذا أُبدل مكانه غيره جاءَ منه : إما تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة ، ذلك أن فى الكلام أَلفاظًا متقاربة فى المعانى[٣] يحسب أكثر الناس أنها متساوية فى إفادة بيان مراد الخطاب ؛ كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح ، وكالنعت والصفة ، وكقولك : اقعد واجلس ، وبَلَى ونعم ، وذلك وذاك ، ومن وعن ، ونحوهما من الأسماءِ والأفعال والحروف والصفات مما سنذكر تفصيله فيما بعد ، والأمر فيها وفى ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها فى بعض معانيها وإن كانا قد يشتركان فى بعضها . تقول : عرفت الشىء وعلمته إذا أردت الإثبات الذى يرتفع معه الجهل ؛ إلاَّ أن قولك : عرفت . يقتضى مفعولاً واحداً كقولك : عرفت زيدا ، وعلمت يقتضى مفعولين ، كقولك : علمت زيداً عاقلاً ولذلك صارت المعرفة تستعمل خصوصاً فى توحيد الله تعالى وإثبات ذاته ، فتقول : عرفت الله ، ولا تقول علمت الله ، إلا أن تضيف إليه صفة من الصفات فتقول : علمت الله عدلاً ، وعلمته قادرًا ، ونحو ذلك من الصفات . وحقيقة

---

(١) يرد هذا الجزء ملخصاً فى الإتقان ٢/٢٠٥ ، وفى مفتاح السعادة ٢/٣٦٠ .
(٢) فى (ب) تجتمع .
(٣) لعل النظر إلى بلاغة القرآن من هذه الوجهة هو الذى دفع بعض العلماء مثل أبى هلال العسكرى إلى العناية بالفروق اللغوية .

البيان فى هذا أن العلم ضده الجهل ، والمعرفة ضدها النكرة . والحمد والشكر قد يشتركان أيضًا ، والحمد لله على نعمة أى الشكر لله عليها ، ثم قد يتميز الشكر عن الحمد فى أشياء ؛ فيكون الحمد ابتداءً بمعنى الثناء ، ولا يكون الشكر إلا على الجزاء ، تقول : حمدت زيدًا[1] إذا أثنيت عليه فى أخلاقه ومذاهبه وإن لم يكن سبق إليك منه معروف ، وشكرت زيدًا إذا أردت جزاءه على معروف أسداه[2] إليك ، ثم قد يكون الشكر قولاً كالحمد ، ويكون فعلاً كقوله جل وعز : ﴿ اعملوا آل داود شكرًا ﴾[3] . وإذا أردت أن تتبين حقيقة الفرق بينهما اعتبرت كل واحد منهما بضده ، وذلك أن ضد الحمد الذم ، وضد الشكر الكفران ، وقد يكون الحمد على المحبوب والمكروه ، ولا يكون الشكر إلا على المحبوب .

وأما الشح والبخل فقد زعم بعضهم أن البخل منع الحق ، وهو ظلم ، والشح ما يجده الشحيح فى نفسه من الحزازة عند أداءِ الحق وإخراجه من يده . قال : ولذلك قيل : « الشحيح أعذر من الظالم » . قلت : وقد وجدت هذا المعنى على العكس مما روى عن ابن مسعود : حدثنا أحمد بن إبراهيم بن مالك قال : نا عمر بن حفص السدوسى قال : نا المسعودى عن جامع بن شداد عن أبى الشعثاء قال : قلت لعبد الله بن مسعود ، يا أبا عبد الرحمن إنى أخاف أن أكون قد هلكت ، قال : ولم ذاك ؟ . قلت : لأنى سمعت الله يقول : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نفسِه فأُولئك هُمُ المفْلِحُون ﴾[4] ، وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدى شىء . قال : ليس ذاك الشح الذى ذكره الله فى

---

(١) هكذا فى « ب » وفى « أ » والطبعة الأولى « هذا » .
(٢) هكذا فى « ب » وفى « أ » والطبعة الأولى « ابتدأه » .
(٣) [سبأ ٣٤/ ١٣] . (٤) [الحشر ٥٩/ ٩] .

القرآن ، ولكن الشح أن تأْكل مال أَخيك ظلمًا ، ولكن ذاك البخل ، وبئس الشيء البخل .

وأَما النعت والصفة ، فإن الصفة أَعم والنعت أَخص ، وذلك أَنك تقول : زيد عاقل وحليم ، وعمرو جاهل وسفيه ، وكذلك تقول : زيد أَسود ودميم ، و [عمرو] [١] أَبيض وجميل ، فيكون ذلك صفة ونعتًا لهما وأَما النعت فلا يكاد يطلق إلا فيما لا يزول ولا يتبدل ، كالطول والقصر والسواد والبياض ونحوهما من الأُمور اللازمة .

وأَما قول القائل لصاحبه : اقعد واجلس ، فقد حكى لنا عن النضر بن شُميل أَنه دخل على المأْمون عند مقدمه مرو ، فمثل بين يديه وسلم ؛ فقال له المأْمون : اجلس ، فقال : يا أَمير المؤمنين ما أَنا بمضطجع فأَجلس ، قال : فكيف تقول ؟ قال : قل اقعد . فأَمر له بجائزة .

قلت : وبيان ما قاله النضر بن شميل إنما يصح إذا اعتبرت إحدى الصفتين بالأُخرى عند المقابلة ، فتقول : القيام والقعود كما تقول : الحركة والسكون ، ولا نسمعهم يقولون القيام والجلوس وإنما يقال : قعد الرجل عن قيام ، وجلس عن ضجعة واستلقاء ، ونحو ذلك .

وأَما قولك : بلى ونعم ؛ فإن بلى جواب عن الاستفهام بحرف النفى كقول القائل : أَلم تفعل كذا ؟ ، فيقول صاحبه : بلى ، كقوله عز وجل : ﴿ أَلستُ بربِّكُم قَالُوا بَلَى ﴾ [٢] . وأَما نعم فهو جواب عن الاستفهام نحو هل [٣] كقوله سبحانه [٤] : ﴿ هل وجدتُم ما وَعَدَكُم ربّكم حقًّا قالوا نعم ﴾ [٥] .

---

(١) وردت العبارة فى الأصل بغير (عمرو) وقد زدناها ليستقيم الكلام .

(٢) [الأعراف ٧/١٧٢] .

(٣) فى الأصل : نحو فهل وقد سقطت هاتان الكلمتان من طبعة (ص) .

(٤) فى طبعة (ص) : كقوله تعالى .

(٥) [الأعراف ٥/٤٤] .

وقال الفَرّاء : بلى لا يكون إلا جوابًا عن مسأَلة يدخلها طرف من الجحد . وحكى عنه أَنه قال : لو قالت الذرية عندما قيل لهم أَلست بربكم ، نعم ، بدل قولهم بلى لكفروا كلهم .

وأَما قولك : ذاك وذلك[١] فإِن الإِشارة بذلك إنما تقع إلى الشىء القريب منك ، وذاك إنما يستعمل فيما كان متراخيًا عنك .

وأَما مِن وعن فإِنهما يفترقان فى مواضع[٢] كقولك : أَخذت منه مالا ، وأَخذت عنه علمًا ، فإِذا قلت : سمعت منه كلامًا أَردت سماعه من فيه ، وإذا قلت : سمعت عنه حديثًا كان ذلك عن بلاغ ، وهذا على ظاهر الكلام وغالبه . وقد يتعارفان[٣] فى مواضع من الكلام . ومما يدخل فى هذا الباب ما حدثنى محمد بن سعدويه قال : حدثنى محمد بن عبد الله بن الجنيد قال : حدثنى محمد بن النضر بن مساور قال : حدثنا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال : جمعنا الحسن لعرض المصاحف أنا وأَبا العالية الرياحى ونصر بن عاصم الليثى وعاصمًا الجحدرى ؛ فقال رجل يا أَبا العالية قول الله تعالى فى كتابه : ﴿ فويلٌ للمصَلِّين الذين هُمْ عن صَلاتِهم سَاهُون[٤] ﴾ ما هذا السهو ؟ ، قال الذى لا يدرى عن كم ينصرف ؛ عن شفع أَو عن وتر ، فقال الحسن : مه يا أَبا العالية ليس هذا بل الذين سهوا عن ميقاتهم حتى تفوتهم . قال الحسن : أَلا ترى قوله عز وجل : (عن صلاتهم) ، وناه أَبو رجاء الغنوى ، نا محمد بن الجهم السجزى ، نا الهيثم بن خالد المنقرى

---

(١) كذا فى « ب » وفى « أ » والطبعة الأولى ذاك .

(٢) فى « ب » زيادة (كثيرة) . (٣) لعلها يتقاربان وفى « ب » يتعاقبان .

(٤) [الماعون ١٠٧ / ٥] .

عن أَبي عكرمة عن جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار نحوه . قلت : وإنما أُتِيَ أَبو العالية فى هذا حيث لم يفرق بين حرف عَن وفى ، فتنبه له الحسن فقال : أَلا ترى قوله : ﴿عن صلاتهم﴾ يؤيد أَن السهو الذى هو الغلط فى العدد إنما هو[1] يعرض فى الصلاة بعد ملابستها ، فلو كان هو المراد لقيل : فى صلاتهم ساهون ، فلما قال عن صلاتهم دل على أَن المراد به الذهاب عن الوقت . ونظير هذا ما قاله القُتَبِىُّ[2] فى قوله تعالى : ﴿ومن يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لهُ قَرِين﴾[3] زعم أَنه من قوله : عشوت إلى النار أَعشو إذا نظرت إليها . فغلَّطوه فى ذلك وقالوا : إنما معنى قوله : من يُعرض عن ذكر الرحمن ، ولم يفرق بين عشوت إلى الشىء وعشوت عنه — وهذا الباب عظيم الخطر ، وكثيراً ما يعرض فيه الغلط ، وقديمًا عنى به العربى الصريح — فلم يحسن[4] ترتيبه وتنزيله .

حدثنى عبد العزيز بن محمد المسكنى قال : حدثنى إسحاق بن إبراهيم قال حدثنى سويد نا ابن المبارك عن عيسى بن عبد الرحمن قال : حدثنى طلحة اليامى قال : حدثنى عبد الرحمن بن عوسجة عن البراءِ بن عازب أَن أَعرابيًّا جاءَ إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : علِّمنى عملا يدخلنى الجنة فقال : اعتق النسمة وفكَّ الرقبة قال : أَوليسا واحدًا ؟ . قال : لا ، عتق النسمة أَن تنفرد بعتقها وفك الرقبة أَن تعين فى ثمنها . فتأَمل كيف رتب الكلامين

(١) سقطت (هو) فى (ص) .

(٢) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ أو سنة ٢٧٠هـ ، وقد ذكر صديق فى هامش له (ا) ٣٩ أن الوفاة كانت سنة سبع ومائتين وهو مغاير لما تذكره المصادر فى ترجمته .

(٣) [الزخرف ٤٣ / ٣٦] . (٤) يقصد القتبى .

واقتضى من كل واحد منهما أخص البيانين[1] فيما وضع له من المعنى وضمنه من المراد . وحدثني عبد الله بن أسباط عن شيوخه قال جمع هارون الرشيد سيبويه والكسائى فألقى سيبويه على الكسائى مسألة فقال : هل يجوز قول القائل : كاد الزنبور يكون العقرب فكأنه إياها أو كأنها إياه ؟ فجوزه الكسائى على معنى كأنه هى أو كأنها هو ، وأباه سيبويه ، فأحضر الرشيد جماعة من الأعراب الفصحاء كانوا مقيمين بالباب وسألهم عنها بحضرتهما فصوبوا قول سيبويه ولم يجوزوا ما قاله الكسائى ، قيل وذلك أن حرف (إيّا) إنما يستعمل فى موضع النصب ، وهى هنا فى موضع رفع فلم يجز . ومثل هذا كثير واستقصاؤه يطول .

قلت : ومن ها هنا تهيب كثير من السلف تفسير القرآن ، وتركوا القول فيه حذرًا أن يزلوا فيذهبوا عن المراد ، وإن كانوا علماء باللسان ، فقهاء فى الدين ؛ فكان الأصمعى – وهو إمام أهل اللغة – لا يفسر شيئًا من غريب القرآن . وحكى عنه أنه سئل عن قوله سبحانه : ﴿ قد شغفها حبًّا ﴾[2] فسكت وقال : هذا فى القرآن ، ثم ذكر قولاً لبعض العرب فى جارية لقوم أرادوا بيعها : أتبيعونها وهى لكم شغاف ؟ . ولم يزد على ذلك ، أو نحو هذا الكلام .

قلت : ولهذا ما حث صلى الله عليه وسلم على تعلم إعراب القرآن وطلب معانى الغريب منه . نا إسماعيل بن محمد الصفار قال : حدثنى محمد بن وهب الثقفى[3] ، قال حدثنى محمد بن سهل العسكرى قال حدثنى ابن أبى زائدة عن عبد الله بن سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه » .

---

(١) فى « ب » (الشأنين) .
(٢) [يوسف ١٢/ ٣٠] .
(٣) سقطت الثقفى فى (ا) .

قلت : فإذا عرفت هذه الأصول تبينت أن القوم إنما كاعوا[1] وجبنوا عن معارضة القرآن لما قد كان يئودهم ويتصعدهم منه ، وقد كانوا بطباعهم يتبينون مواضع تلك الأمور ويعرفون ما يلزمهم من شروطها ومن العهدة فيها ، ويعلمون أنهم لا يبلغون شأوها ، فتركوا المعارضة لعجزهم ، وأقبلوا على المحاربة لجهلهم ، فكان حظهم مما فروا إليه حظهم مما فزعوا منه ﴿ فغُلِبوا هنالك وانقَلبوا صاغرين ﴾ والحمد لله رب العالمين .

فإن قيل : إنا إذا تلونا القرآن وتأملناه وجدنا معظم كلامه مبنيًّا ومؤلفًا من ألفاظ مبتذلة [2] فى مخاطبات العرب مستعملة فى محاوراتهم ، وحظ الغريب المشكل منه بالإضافة إلى الكثير من واضحه قليل ، وعدد الفقر والغرر من ألفاظه بالقياس إلى مباذله ومراسيله عدد يسير ، فكيف يتوهم عليهم العجز عن معارضته والإتيان بمثله ، وهم عرب فصحاء مقتدرون على التصرف فى أودية الكلام ، عارفون بنظومه . قصيده ورجزه وسجعه ، وسائر فنونه ، فلو كانوا أرادوه وقنعوا عن شفاء الأنفس به لسهل ذلك عليهم ، وإنما عاقهم عن ذلك رأى آخر كان أقوى فى نفوسهم وأجدى عليهم فى مبلغ آرائهم وعقولهم ، وهو مناجزتهم إياه الحرب ومعاجلته بالإهلاك استراحة إلى الخلاص منه ، وكراهة لمطاولته على القول ومعارضته بالكلام الذى يقتضى الجواب ، فيتمادى بهم الزمان للنظر فيه والانتقاد له ، فتكثر الدعاوى ، ويخفى موضع الفضل بين الكلامين ، فمالوا إلى هذا الرأى قصدًا إلى اجتياحه واستئصاله ، إذ كانوا فيما يرونه مستظهرين عليه مستعلين بالقدرة فوقه .

قيل : إنا قدمنا من بيان أوصاف بلاغة القرآن وذكرنا من شرائطها ما أسقطنا به عن أنفسنا هذا السؤال . وزعمنا أنها أمور لا تجتمع لأحد من

---

(١) كاع عن الشىء هابه وجبن عنه .

(٢) فى الأصل مبذلة وصححها « ا » مبتذلة .

البشر ولا يجوز أن تأتى عليها قدرته ، وإن كان أفصح الناس وأعرفهم بطرق الكلام وأساليب فنون البيان ، وذكرنا العلة فى ذلك ، وبينا المعنى فيه ؛ ولم نقتصر فيما اعتمدناه من البلاغة لإعجاز القرآن على مفرد الألفاظ التى منها يتركب الكلام دون ما يتضمنه من ودائعه التى هى معانيه ، وملابسه التى هى نظوم تأليفه .

وقد قال بعض العلماء [١] فى الأسماء اللغوية وهى نوع واحد من الأنواع الثلاثة التى شرطنا أنه لا يجوز أن يحيط بها كلها إلا نبى ؛ وقد كان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه – وهو من الفصاحة فى ذروة السنام والغارب – يقرأ قوله عزوجل : ﴿ وفاكهة وأبًّا ﴾[٢] فلا يعرفه فيراجع نفسه ويقول : ما الأبّ ؟ ثم يقول : إن هذا تكلف منك ياابن الخطاب . وكان ابن عباس رحمه الله – وهو ترجمان القرآن ووارث علمه – يقول : لا أعرف حنانًا ولا غسلين ولا الرقيم . هل فى اللغة التفث فى شىء من كلام العرب ؟ ، وإنما أخذوه عن أهل التفسير على ما عقلوه من مراد الخطاب .

فأما المعانى التى تحملها الألفاظ فالأمر فى معاناتها أشد لأنها نتائج العقول وولائد الأفهام وبنات الأفكار .

وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ وزمام المعانى وبه تنتظم[٣] أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة فى النفس يتشكل بها البيان .

---

(١) يذكر (ا) أنه الإمام الشافعى ، وينقل قوله فى أوائل الرسالة : لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً ، ولانعلم أن يحيط بجميع علمه إنسان غير نبى ولكنه لايذهب منه شىء على عامتها .

(٢) (عبس ٨٠ / ٣١) .

(٣) الرسم هنا غير واضح فى الأصل ، وقد قرأه (ا) : وبه يتصل أخذ الكلام .

وإذا كان الأمر فى ذلك على ما وصفناه فقد علم أنه ليس المفردُ [١] بذَرَبِ اللسان وطلاقته كافياً لهذا الشأن ، ولا كل من أوتى حظًّا من بديهة وعارضة كان ناهضاً بحمله ومضطلعًا بعبئه ما لم يَجمعْ إليها سائر الشرائط التى ذكرناها على الوجه الذى حددناه ، وأنى لهم ذلك ومن لهم به ؟ و﴿ لئن اجتَمعت الإِنسُ والجنُّ عَلى أَن يأْتُوا بِمثْلِ هذا القُرآنِ لا يأْتُون بمثله ولوْ كان بعضُهم لبعضٍ ظهيرًا ﴾[٢] .

وأما ما ذكروه من قلة الغريب فى ألفاظ القرآن بالإضافة إلى الواضح منها ، فليست الغرابة مما شرطناه فى حدود البلاغة ، وإنما يكثر وحشى الغريب فى كلام الأَوحاش من الناس ، والأَجلاف من جفاة العرب ، الذين يذهبون مذاهب العنجهية ، ولا يعرفون تقطيع الكلام وتنزيله والتخير له ، وليس ذلك معدودًا فى النوع الأَفضل من أنواعه . وإنما المختار منه النمط الأَقصد الذى جاء به القرآن ، وهو الذى جمع البلاغة والفخامة إلى العذوبة والسهولة . وقد يعد من أَلفاظ الغريب فى نعوت الطويل نحو من ستين لفظة أَكثرها بشع شنع . كالعَشَنَّق[٣] ، والعَشَنَّط[٤] ، والعطنَّط ، والشوقب والشوذب والسلهب[٥] ، والقوق ، والقاق ، والطوط والطاط . فاصطلح أَهل البلاغة على نبذها وترك استعمالها فى مرسل الكلام ، واستَثْقَلُوا الطويل . وهذا يدلك على أَن البلاغة لا تعبأُ بالغرابة ولا تعمل بها شيئًا .

فإن قيل : إنا لا نسلم لكم ما ادعيتموه من أَن العبارات الواقعة فى

---

(١) فى « ب » : التفرد .

(٢) [الإسراء ١٧ /٨٨] .

(٣) الشعنق والعشانق (كعملس وعلابط) الطويل ليس بضخم ولا مثقل .

(٤) العشنط (كعشنق) التار الظريف الحسن الجسم ، وقد وردت هذه الكلمة فى (ا) محرفة إلى عنشط فى صلب الكتاب وهامشه .

(٥) فى الأصل السهلب ولم ترد فى كتب اللغة .